الموسيقى العربية

وعبده الحمولي

خليل مطران

(١)

مات عبده فمات فن وزال آخر شعاع من عصر توارت شمسه في ظلمة الأبد . فقد كان اسماعيل شمساً في سماء مصر . وكان كل ذي شأن من معاصريه ككوكب يستمد منهُ نوره . فلما أفلت لحقت بها تلك الانوار يتلو بعضها بعضاً الى ان تمّ الزوال بوفاة صدّاح تلك العظمة الشمّاء وغرّيد ذلك الملك العظيم

وكثيراً ما كان عبده يبكي لحناً من الحان ذلك العهد فيسلمه لنا من خلال مدامعه الجارية وفمانه الشجية كأنهُ زينة مُنارة بألوف المصابيح حافلة الجماهير الفرحين الطروبين . وكأن مصر دار ذلك العرس تضحك بالانوار لمستقبلها العابس . وكأن الامير أمير الزمان يومه وغده . وكأن الوفود من عرب وعجم اعوان دولة تشاد . وانما كانوا مقدّمة أمل رفيع المعاد . وكان « عبده » منهُ على اريكته بشير السعادة الخالدة في ذلك الاستقلال الزائل . فاذا فرغ من انشاد صوته ورجعنا الى انفسنا نظرنا حولنا فرأينا دولة اليوم ورجال هذا الزمن . ولم يثبت لدينا من حقيقة ذلك الحلم الرائع إلاّ ذلك المغنى المتحبب على حالٍ حالت . ونعمةٍ زالت . ودولة دالت

ولقد كان في مصر قبل انقضاء هذه الأشهر الاخيرة مغنيان هما « عبده » « وعثمان » فاليوم نحن ولا مغنٍ في الفرح . ولا معزٍ في الترح . الاّ ما كان من قبيل رجع الصدى الذي يتردد حيناً بعد هتاف الهاتف

كان عبده مبتكراً يخلق اللحن خلقاً من حاضر ما يوحي به اليه فيحبّر به المهرّة ويطرب الشامين ما يشاء التطريب بالنغمة والاعجاب بقدرة مبتدعها . وربما كسر القيد ونقض القاعدة

وندَّ عن المألوف . فطار وحلق . وقد بكم العود ، وعيَّ القانون ، وأنصت الناي . مطلقاً صوته يمرح في سماء التطريب . فمن وثبة الفسر الى انحدار السيل . الى خطف البرق . الى تغريد القمري الى نوح الحمامة . الى انين الجدول . كل هذا والصوت عال منخفض . جهوري خافت . رنان مرتجف . مشبع ضئيل . والنغمات تجتمع اصولاً وتفترق فروعاً . وتلتقي وتنفرد وتتداني وتتباعد وتتواصل وتتفاصل مفضية بعضها الى بعض متسلسلة على مقتضى سلامة الذوق والمهارة الفنية منتهية الى القرار

وكان « عثمان » مؤلفاً بارعاً في ترتيب الالحان . بصيراً بأخذ النغمات من مواضعها وجمعها على نسق مستحب . كلفاً بصناعته جادّاً في اتقانها إرادة ان يستفيض عنهُ طلاوة الصوت بحسن الاسلوب ولطف السياق . ولهذا كان لا يغني منفرداً . ولا يطلق صوته إلاّ على اجنحة الآلات . فاذا لحّن اغنية واسمعها الناس لأول مرة خرجت متقنة صحيحة الوضع رائعة للسمع . ولكن يبدو عليها اثر أعنات الفكر ويُشتم منها ريح التصنع المذاب في السهر على تخريج اجزائها . وتوجيه ضروبها . والملاءمة بين رقتها ومتانتها . على ان هذا لا ينفي ان « عثمان » كان ضريب « عبده » وانهُ أثبت بنتيجة عمله ان لحسن التأليف مكاناً بجانب الابتكار وان للاجتهاد منزلة قد تعادل منزلة الاختراع . بل ان المجتهد قد يكون ذا فضل على المخترع بما يهيئهُ لهُ من مواد الابتداع . ومن الحق ان يُقال ان « عثمان » كان في اخريات هذه السنين واضع معظم الالحان فيأخذها « عبده » عنهُ ويكسوها من الحلل والحليّ ما تشاء بديهته الخاصة به فيبدو هي سوقة حسان اذا هي ملكات بتيجان . وبينا هي اشخاص ترمقها عيون المعجبين ، اذا هي ارواح تنسمها قلوب المحبين

وعلى هذا كان « عثمان » يجدد للناس روح « عبده » و « عبده » يسمع الناس علم « عثمان » فهما العاملان المتكاملان احدهما بالآخر على ما بينهما من تحاسد وتباغض وتباعد

هذه صفة « عبده » مغنياً وتلك منزلته التي لم يدانه فيها من ارباب فن الموسيقى الاّ « عثمان »

أما اخلاقه فكانت اخلاق كرام الناس وبها شرّف قدر مهنته التي كانت الى عهده تعد من المهن الوضيعة . فقد كان انيس المجلس . كارهاً للغيبة راغباً في مجانس الظرفاء المتأدبين ، محدثاً ذكيًّا لا تفوته شاردة ولا واردة من طرف الكلام جوّاداً جود الامراء منطقاً وديعاً كأنهُ ابداً في حضرتهم وفيًّا لاصدقائه لا يضن عليهم بما فيهِ نفع لهم ورضى . مجاملاً لذوي قربه محتاطاً لهم لا ينفض منهم إلاّ من ركب الدنايا واجتنّ بما يسميهِ شرف الحرفة

ولو كتب الله لهُ فسحة في الاجل لعاش عيشة مقيدة بنظام . ولكنهُ كان مطلق هوى النفس كما هو شأن النوابغ ولا شك في ان نعم الله الكثيرة قد حسبت عليهِ رحمهُ الله رحمةً واسعة

(٢)

اما وقد اشرنا بما يقتضيه المقام من الايجاز الى منزلتي « عبده » و « عثمان » فيجمل بنا

تمهيداً لفائدة هذا المقال ان نتكلم على فن الغناء العربي كما هو الآن ونبحث فيما اذا كان ينبغي ان يبقى كما استخلفنا عليه هذان الفقيدان او ان يعدّل ويكيّف بحيث يصبح أتم تأثيراً في النفوس وأصلح لأن يشربها ما هي في حاجة اليه من الخلال الشريفة والفضائل

فالموسيقى فيما اشتهر من تعريفها انما هي تأليف اصوات تحدث طرباً في قلوب السامعين. والطرب قد يكون سروراً وقد يكون شجواً ومعناه في الحقيقة الانفعال الذي تولده الانغام في النفس أيًّا كان

ومن اوصاف الموسيقى انها في بناء الاصوات كفن العمارة في تشييد الابنية وتأليف اجزائها والمناسبة بين رسومها ونقوشها وتفاطيعها وتحلياتها يسميه الافرنج بموسيقى البناء على ان اساسها التناسب كما هو أساس كل فن نفيس وهذا التناسب في الموسيقى يعرف اصطلاحاً بالايقاع، والايقاع قديم قدم الموسيقى غير ان المشين من العرب حصروه في نغمة نغمة مما يغنون. فكان في حقيقته مفضياً الى الملل بخلاف الافرنج فانهم استخدموه وسيلة للتنقل من نغمة الى نغمة ولاعطاء كل نغمة جميع الرنات التي يتم بها طربها التاجم عنها بذاتها او باجتماعها مع سائر الانغام التي يتألف منها الصوت

ولا غرو ان يكون مفتونا على مثل هذا الجهل الذي ابقى الموسيقى العربية على حالها الفطرية فان شعراءنا — الا بعضهم — وكتّابنا عدا القليل منهم — لا يزالون الى الآن ارقاء الجناس، وعبيد مراعاة النظير، وخدمة السجع، وذبّاحي المعاني الجليلة وناسخي الحقائق، وماسخي الصور الجميلة في الطبيعة، وجاحدي وجدانات النفس وانفعالات الحس ليقتدوا بأمة هم تركوا عاداتها واخلاقها، وعبروا خيامها وصحاريها وأنكروا ملبسها ومأكلها ومشربها، ولم يحتفظوا بشيء من خلالها ومزاياها. ولم يستبقوا منها الا النسبة اليها. فلا هم يحسنون تقليد ادبائها ولا هم ينتزعون من لغتها لهم لغة خاصة فصيحة ذات اساليب ومصطلحات وألفاظ تمكنهم من التعبير عما يخالج ضمائرهم ويخامر نفوسهم مما ينطبق على الواقع ويكون صدًى حقيقيًّا لما يشعرون به

كتب اعرابي في صدر منظومة له « فما بكى » فلم يسهل واحد منهم منظومة بعد ذلك الا وهو واقف باكٍ. ولنظم آخر ابياتاً كثيرة يروي واحد منهم قصيدة فتجمعه في ذلك كل ناطق بالضاد من صحراء الجاهلية الاولى العريقة في الهمجية الى ساحة المعرض العام بباريس في أجمع زمان لاسباب الحضارة وكل كتب القصيدة على ذلك النمط. وذكر احد ظرفائهم ان الارجوزة حمار الشعر فلم يروا عقب ذلك ارجوزة الا وهما اربع قوائم تمشي عليها. وهكذا هم يتقيدون بسلاسل التقليد. وكتّاب اللغات الاجنبية يذهبون كل مذهب في اختراع التراكيب وابتداع الاساليب التي يظهر معها كل خفي ويتجسم كل روحاني، وتتمثل كل صورة، ويصور كل شعور

فهم أبناء عصرهم ونحن ابناء العصور الخالية . وهم يحيون بما ينظرونه ويحسونه . ونحن نحيا بما ننقله عنهم في الصور والحس .

ومعلوم ان الموسيقى شقيقة للادب مطبوعة على غرارة فكيف كان الادب تكون الموسيقى . وهي الآن منحطة في الشرق لانه منحط وانحطاطها على قدر . فكلاهما يجب نقده وتنقيحه واخراجه الى ما تقضي به الحاجة الماسة . والاّ فأي مصلح للامة يكون اقوى في البيان ؟ وأي بيان يكون اشد وقعاً في النفس من الذي توصله اليها النغمة وتمزجه بها مزجاً ؟

على ان الاصلاح الذي ينتفيه ميسور اذ يكفينا أن نبدأ بتطبيق الموسيقى العربية على الموسيقى التركية تطبيقاً تدريجيًّا الى ان يألفها الذوق ، وتوضع لها قواعد ، وترسم علامات ، ويغنى الدور الواحد بنغمة واحدة وألفاظ واحدة في المنتديات وفي البيوت وفي الاسواق . فاذا وصلنا الى هذه الدرجة انسقنا بحكم السير الطبيعي الى ما هو اعلى فأعلى . وهكذا فعل الاتراك . اذ اخذوا عن الارمام الذين غناؤهم اقرب الى الغناء الشرقي . فأصبحوا الآن ينشدون في ملاعبهم اجمل الروايات الموسيقية الاجنبية بألفاظ تركية وقد لا يمضي زمن حتى ينشىء بعضهم رواية موسيقية متقنة فيبلغون بها الغاية

وكان المرحوم « عبده » قد شرع في نقل شيء عن الموسيقى التركية . ومنها أخذ الاهات الطويلة التي يصاعده فيها جمهور المغنين وهي احسن ما في غنائنا الآن . غير انه لم يتمنَّ له معين على احداث الرموز التي هي اساس علم الموسيقى والتي بغيرها لا تكون الانغام الا فوضى . واذكر اني شكوت اليه يوماً هذا القصور وقلت له . ان الرموز الموسيقية موضوعة منذ نيف وخمسة آلاف سنة . وانها اول ما رسمت في الهند وفي الصين . فمن المخجل ان تكون مصر سيدة الموسيقى في الشرق الآن ولا يستطاع اثبات لحن من الحانها على صحيفة يعلم منها اخواتنا الفاصون او ابناؤنا الآتون اي فن كان فنا في التلحين وما كان «عبده» وكيف كان اسلوبه ؟ وهل كان جديراً بالمحل الذي احل فيه من اكرام الناس ؟ فأجابني : انه كان يود ذلك وانه سعى ما سعى للوصول اليه فلم يفز بطائل . وانه لم يجد واحداً في القطر يستطيع ان يعرفه معنى لحن من الالحان الاجنبية تركية كانت اوغير تركية . وان كل ماحصله من معنى الاتراك وأدخله في المغنى العربي كان سماعيًّا اجتهاديًّا رائده فيه موافقة الذوق المألوف ، ومراعاة الاصطلاح المعروف

لا جرمَ ان عملاً كهذا ليس مما يقوم به فرد أوعى صدره ما اوعى من المعارف الموسيقية المختلفة . وبلغت ثروته ما بلغت من السعة . وانما هو عمل شركة او جمعية تستقدم اساتذة من الاستانة لتخريج جمهور من ذوي الفطرة الموسيقية والاصوات الحسنة على مبادىء هذا الفن . وتعليمهم حقيقة مقصده وشرف غرضه ، وتدريبهم على التأليف فيه كل بما يوحي اليه علمه وعقله

وترشده اليه ملكته كما يفعل ذلك الذين يدربون على الانشاء ، وتاج مثل هذا التدريس أبين من ان اطيل الكلام عليها فحسبي الاشارة

اما اذا بقيت الموسيقى على ما هي عليه الآن فانها بلا ريب تلذنا ولكنها تمثلنا ابداً باخلاق الرعاة الفوضى وان كنا في أزياء المدنيين الحضريين لان هذه الاصوات الآنية ، وهذه الآنات المرضية ، وهذه النغمات الصدرية لا تصدر عن بأس وحزم ولا تدل على شرف وعلم

(٣)

بقي ان نصف كيف ينبغي ان تكون الموسيقى العربية ليحسن تصورها الذين يروعهم من الموسيقى الافرنجية دوي الطبل وقعقعة النحاس وطنطنة المثلثات الحديدية ، وخوار المعازف المدنية ، الى ما يماثل ذلك مما يختلط على ذهن جاهله ويسوء وقعه في نفسه لعدم ادراك معناه . وانما الموسيقى في اصطلاح الفريقين فن كالكتابة او الرسم سوى انها تمثل لنا بالصوت ما يمثله لنا الانشاء بالالفاظ التي تستثير في مخيلتنا تصور مقصوداتها وما يمثله الرسم بالصور التي تنطبق على مرئياتنا

وبديهي أن كلاً من هذه الفنون لا يرينا مما يمثله إلا جانباً ويدع لنا الجانب الآخر تتمهُ بما تخيله أو نقله أو نشعر به ، فالكاتب اذا حدَّث عن عاصفة مثلاً وصف لنا شمساً محمرة كالجمرة في كبد السماء يحيط بها قتام يتناها الى ان تطفىء فيشمل الظلام ويكون ليلاً . ونشر سحائب سود كثيفة ترسل في الجو رعوداً مايثة الدوى ثم صادعة ، وبروقاً ملطفة اللمعان ثم ساطعة ، واطلق ريحاً مجومياً عاصفة تمر على البلد الموصوف فتهدم واهية مبانيه وتذري رماده وتجتث اشجاره العاتية وتصفع وجوه زجاجه بالبرد وتجري بطرقه سيولاً فاذا ابلغ السيول منتهاه وصف لنا في خلال هذه الروائع كلها طفلاً يتيماً هائماً على وجهه وقد لجأت الناس الى ما كنها جزعاً وقد اطمأنت الاطفال بين ايدي آبائها وامهاتها في مآمنها وانما يقف ذلك الطفل الصغير في ذلك الموقف الرهيب ليحرك في قلبنا وتر حنان ورفق خلال خفقان الهلع وثورة الدهشة فمن قرأ هذا الوصف رأى تكلح الشمس وافولها وانتشار السحائب السود ولمع الوميض المتتالي وتقلع الاشجار . وتقوض الجدران على التوالي وسمع زئير الرعد القاصف وهدير السيل الجارف . وركض الزمهرير العاصف وركوع البناء الواقف . ورأى في اثناء هذا الحادث الجلل دهشة ذلك اليتيم الخائف وسمع خفقان قلبه الصغير الواجف كأن ما قيل حاضر بين يديه وكأنه منه على كثب ينظره بعينيه ويسمعه باذنيه مع انه في الحقيقة لم يرَ ولم يسمع من ذلك شيئاً . فالكاتب رمز له بما ينبّه عنده هذه التصورات الشتى ويحملها على الشكل الذي أحبهُ ثم لهُ ما أراد على قدر مهارته وللالفاظ في بلاغ قصده رنة لا تنكر . وللتراكيب امتزاج بالنفس لا يجحد . ولاصوات الحروف لعب بالسماع والقلب لا ريب فيه . ولكن كل هذا ليس الا من المتممات . فاذا قدرنا بعد

هذا ان رساماً تولى تصوير هذا المشهد فغاية ما نستطيعهُ تمثيل قدَّة كالهلال في الشمس الحمراء في جهة الافق . وتكديس طبقات من الغيوم القاتمة في صدر السماء . وتحدير سقوط كسيج المطر من المطر الغزير . واقامة أمواج من الزبد في الطرق السائلة بالوحل والماء تلاطم من الحجارة اشباه أنياب العجوز الفلجاء، واماله حائط وصرع شجرة وتقصف اخرى ، وتكسر زجاج ، ووقفة طفل باكي الاطمار في موقف الحيرة والجزع بعينين مجلاوين وقد سالت منهما دمعتان . ولكن الرسام يرتب هذه الاجزاء ويحكم وضع كل معنى مقصود في اللون الذي يلونه حتى انك لتسمع الرعد وانت تنظر البرق وتحس الدمار وانت ترى آثاره وتشعر بخفقان قلب الطفل وانت ترى الانفعال البادي على وجهه والدمعتين المتسلسلتين من مقلتيه

وصفوة القول ان الكتابة فن منبه التصور والحس رمزاً . وان الرسم فن منبه لها نظراً . فكان والحالة هذه لا بد من فن متمم لهذين الفنين لينبه التصور والحس سمعاً . وهذا ما بنيت عليه الموسيقى منذ بضع مئات من السنين في اوربا على اعتبار انها فن تقيس مثلها قابل لتأدية المعاني التي يؤديانها . وقد وصلت الآن في تلك البلاد الى هذه الغاية . واصبحت عاملاً من اكبر عوامل تقدمها العجيب

فلنصف الآن كيف تخيل تمثيل الموسيقى للمشهد الذي ذكرناه آنفاً وان لم نكن ممن لهم رأي في هذا الفن . هنا اسأل الصديق الذي يقرأ هذه السطور ان يتخيل انهُ اجاب دعوتي وصحبني الى دار غناء لأريه بسمع أذنيه ما نظره في الرسم بعينيه . فنحن الآن اذن جالسان في تلك الدار على كرسيين متجاورين . وهذه امامنا مجالس الضاربين والعازفين

انظر ايها الصديق أن عدد هؤلاء نحو المئة امام كل منهم دفتر فيه رموز الاصوات التي ينبغي ان يحدثها في الاوقات المعينة له . وهذا كل ما عليه . وعلى الاستاذ الذي فوق المنصة ان ينبه لعامة الترتيب ويمنع الشذوذ . اجمع حواسك الآن واصغ بكليتك فقد أشار الاستاذ بان يبدأوا

ماذا تمثل لك هذه السحابة من النغمات التي تخرج من الاوتار مضطربة سريعة مبتدئة من القرار ؟ أليس هذا أول تهدد الريح المنذرة بالهجوم ؟ أو ليس فيها ما يشعر ببرد الزمهرير ؟ أتسمع كيف تترقى صاعدة متدافقة كأنها علت فوق الارض ذاهبة في الجو كلما جازت شوطاً زادت قوة واتساعاً الى ان تخيلها بلغت السحاب ؟ هذا تنبيه يسمو بالفكر على مثل البساط الروحاني ليوصله الى الافق الأعلى ويشهده حادثاً جليلاً فقد دنت الغيوم من الشمس فاغرة فاها . وانضمت اصوات المعازف النحاسية الى نغمات الاوتار وبلغت الصيحة الى منتهاها . حتى اذا غاص السحاب الضاري جانباً من الشمس وادماها بانيابه حكت الضلوع هذه الصكة الفجائية المنكرة التي ختمت بها حكاية الحال . فكأن الشمس قد انتفت كالقطعة الحمية من النحاس الرنان . وكأنها انشطرت شطرين

وتوارت بالحجاب . وبعد هذا تأمل كيف تراجعت اصوات تلك الصيحة هابطة تدريجاً الى أن انقطع خوار المذبوح ، واستقلت رنات الاوتار تحدر كرش المطر في اول انهماره

الى هذا المقام انتهت الانذارات

انظر كيف أخذ جمهور النغمات يخرج من عامة الآلات متموجاً تموجاً ثقيلاً كأول تحرك البحر ليهيج. أتسمع انسكاب الويل الشديد وتدفق الهازيب وعصفات الريح الطويلة التي تبدأ مثل ارنان النادبة وتنتهي مثل غمغمة الأسد الجائع الذي جاس يأكل فريسته ؟ أتسمع قرع الحجارة تحت السيول ؟ أتسمع تقصف الاشجار المتكسرة ؟ أتسمع وقع الصخور وتهدم الجذران يشمل كل ذلك دوي الرعد الذي يحدثه الطبل ويفرّعهُ الصدى الى عدة رعود صغيرة متتالية يحدثها الطبلان الصغيران تحت النقر السريع المتتابع . أليس لكل صوت من أصوات هذه العاصفة ما يحاكيه إما في آلة او في جمع صوتي آلتين على ترتيب معلوم ؟ ألم ترتسم البرق خلال غضب الرعد ورسم الشجرة الواقعة خلال تقصفها وهي تتكسر على مناتهِ بها ؟ أو لم ترَ نواصي السيول واعرافها البيض خلال وكفها وتهدُّرها وصعودها وتحدُّرها ؟ . هذا منتهى ما يكون هول العاصفة

اسمع الآن كيف أخذت هذه العناصر الجمة تتناوب مراوحاً بين بعضها والبعض . السر في ذلك من جهة ان يبقى في النفوس شعور باستمرار العاصفة وقد تراخت قليلاً بعد الشدة كما هو شأن العواصف ومن جهة اخرى التمهيد لاسماع الناس أنة ذلك اليتيم في حيرته وخوفه . هذه أنة اليتيم تنطلق من أوتار ذلك العود الضخم القائم كالامير بين الآلات كأنهُ سرير داود بين اسرة الملوك في زمانه. أتشعر بما فيها من لذة وحنان ؟ ألست مدركاً من نفسك انها زفير طفل حزين؟ أما في هذه الآونة عثرات اشبه بعثرات قدم الطفل المتحير في خطها وعدم انتظامها ؟ ولكن هنا انقطعت النغمة اللطيفة وعاد الانذار بالهول . سيستأنف جميع ما سمعتهُ من الصيحات والجلبة غير انهُ ملتف كأنهُ مسموع عن بعد ومن وراء حجاب كثيف . ولمَ هذا ؟ لأن ما يستأنف ليس اصوات العاصفة بالذات بل صداها في دماغ ذلك اليتيم المروع الضعيف

هذا بيان واحد من الف من الامور التي تصلح لها الموسيقى ويكون موقعها من النفوس بها كموقعها من النفوس بالرسم والكتابة . ومن المعاني ما يكون تأثيره بالموسيقى أشد وامتن ، على أن لكل من هذه الفنون مزيته التي لا تجحد في تنشيط العزم وازالة الملل . فان المرء يسمع ويبصر لا بأحدهما

قالى هذه الغاية الشريفة من اصلاح فن الموسيقى ينبغي ان تتجه الرغائب العامة في مصر فان « عبده » كان خير مغنٍّ لزمانه وعهده عهد صبابة ورخاء . اما نحن فان اردنا النهضة من الحطة التي نحن فيها فينبغي لنا مغنٍّ يهض عزائمنا الخائرة ويرفع أبصارنا الى السماء